الدكتور صابر عبدالدايم
تحية فى آوانها

بقلم
الدكتور
محمد طه عصر
أستاذ النقد الحديث بجامعة الأزهر

فى افتتاحه كلية اللغة العربية بالزقازيق بكى الإمام الأكبر الدكتور / عبدالحليم محمود حتى بلل الدمع لحيته فلما سئل فى ذلك قال : تـذكرت أم اللغويين بالقاهرة وقد صارت طلل آداب،ومتحف تاريخ ،وقصاصـات صحافة ومستقرا للتأهيل ومستودعا للغات والترجمة، ثم شـحب فيهـا الماضى شحوب المحتضر لا يبين رجعه إلا فى غصة من حلقة أو غضة من طرفه وانعزلت على صخرة خلف الأزهر، وصارت من القطيعة بـين قوسين ، وكنت دعوت الله أن يجعل ابنتها الوليدة عوضا عنها وأن تظل نبعة من أيكه الكنانى العتيق، باقية فى عقبه، وألا تكون وراثتها وراثـة كلالة وهآنذا أرى الصخرة قد اهتزت وربت وأجاءهـا المخـاض إلـى الزقازيق لتضع قمرية منذورة للقـرآن ولغتـه محـررة لأدب العـرب وبلاغتهم .

كان ذلك فى السبيعينات ، وكان على رأسها نخبة من شيوخ الطبقة الأولى وتابعيهم يقدمهم الدكاترة ، سليمان ربيع ، عبدالسلام سـرحان ، يوسف الجرشة ، أحمد قاسم ، محمد هلال ، وحسن الكبير ، وما فتئـوا يطبعونها فى النظم على غرار البحترى ، وفى النثر على شاكلة الجاحظ وفى النقد والبلاغة على مثال ابن قتيبة والأمدى والجرجانيين الثلاثة .. حتى نهدت وصارت عربية الوجه والروح واللسان .

وجاء عمداء الطبقة الثالثة يقدمهم يافع ينطوى عى عـرق حـاتمى ينفض يديه بالكرم ولسانه بالشعر حتى لتخاله من الطائيين ومـا كـان النسب بينه وبينهم إى بسطة اليد وطلاقة اللسان ، ثم أتـيح لـه مـن الامكانات الثقافيةوالاجتماعية مالم يتح لأسلافه .

تستطيع أن ترجع ذلك إلى نشأته وقراءاته وخبرته الأدبية ، ولكنـك لا تستطيع أن ترجع إلى هذه الثلاثة تلك الكيمياء النفسية التـى جعلـت

بينه وبين المثقفين أمشاجا من التواصل تبرق فى الأبصـــار فتتعـــارف وتومض فى الأرواح فتتآلف ، أو تلك القدرة التنظيمية التى جعلت مـــن مؤتمره السنوى ظاهرة علمية شحذت المحافظة وشـــغلت المواصـــلات واربكت المرور واستنفرت وسائل المواصلات، وحيرت هذه الكلية الفتية ربيعا من أربعة الفردوس ينتقل فيها المؤتمرون كما ينتقل النحـــل بـــين الروض لا يتذوق غير الشهد ولا يتنسم غير الرحيق ، إنه عبق الموهبة يفوح وقبس الإبداع يتقد.

وإذا كان كل شئ فى الدار ينسى بعد حين إلا الأمهات فان كل شـــئ لدى الأمهات ينسى إلا أبناءها البررة ، ولعل الدكتور/ صـــابر – مثـــل على ذلك ففى غضون ما غشى الناس مـــن شـــنآن الحرفـــة وحجـــاب المعاصرة ومعارك الدونكشوطية التى تقصم الظهر وتقصف العمر كـــان كالزهر ينفح بالعطر حتى أنوف قاطفيه ، وبهذا ارتقـــى بالكليـــة حتـــى همشت أترابها واخملت ضراتها وعنست أخواتها وانتزعت الريادة مـــن أمها وأصبحت قيد الاسماع وانطلقت من محيطها الاقليمى إلى فضـــائها المصرى والعربى وهى تنظر نظرة التحدى إلى المعوقين أولـــى الإربـــة فألقوا باللائمة على الجامعة وبإخفاقهم على الدعم وفاتهم أن الجامعـــة تقوم بواجبها ولا تمنع أحدا من القيام بواجبه ، وأن الرجـــل كـــان فـــى اصباحه ومسائه يضرب فى الأرض من أفق إفى أفق يطرق الباب تلـــو الباب ليبحث عن دعمه الذاتى وكل رصيده إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس حتى إذا عيل صبره من الطرق واستجابت تلك الأبواب الصقيلة لمتونه الكليلة ، أثبت إنه وإن كان الأخيـــر زمانـــه فأنه آت بما لا يستطيع الأوائل فقد جعلها نبعة من أيكة الكنـــانى حســـن منبتها وطاب جناها وتزاحم على وردها السقاة فنهـــل الضـــالح وعـــل

الضليع وهو بينها رفيع العماد يكافح الكفران بالثقافة ويعزف عن الشهرة ، ويجاهد الاشراك بالفصحى ويعف عن الغنيمة .

فإن قيل لك بعدئذ إنه شمعة تطافئ المصابيح ونسمة تسابق الريح فاعلم ان ذلك من قصر الذيل وعش البصيرة ،ثم تحدى ذلك المتعاشى أن يبلغ مده أو نصيفه، وعندئذ ستعلم أنه الشنآن الذى لا حيلة فيه، والحسد الذى لا حكم معه ، فإن أحدهم يحب الجمع ويكره القسمة ثم يبالغ فى الأثرة حتى يختصر العالم فى نفسه فيفسد كل موضوع ويبطل كل مشروع ولولا المصالح التى تلطع الشفاه بالأكف وتطبع الصدور بالصدور لبليت الدار ورحل الديار وباتت منابتها اغفالا لا تعرف وأرحاما لا توصل فاذا حان وقت الفخار كانوا كعصافير الغروب تسمع كل عصفور يزقزق ولا تجد عصفورا واحدا يستمع ...هذا ما سامرنى به أحد فحولها الراحليين تخيلت رجعته فلما طال بنا شجن الحديث قال : هل تقول شيئا ؟ قلت : ألا فلتسلم هذا الدار وليسلم ذلك الديار ولتظل بين أترابها كمعشوقة الشعراء واحدة من بنات جنسها وليست منهن .

د/ محمد طه عصر